بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَٰنِ
الرَّحِيمِ

عَاشُورَاءُ.. بَيْنَ أَنْوَارِ الْيَقِينِ وَمَوَاقِفِ الْبَذْلِ وَالْإِصْلَاحِ

المركز الإسلامي · خطبة الجمعة

الْحَمْدُ لِلَّهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي تَعَاقُبِ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ مَوَاعِظَ لِلْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، نَاصِرُ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَمُعِزُّ الصَّابِرِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَإِمَامُ الْقِسْطِ وَالْعَدْلِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِ بَيْتِهِ الطَّاهِرِينَ، وَصَحَابَتِهِ الْأَخْيَارِ الْمَيَامِينِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ؛

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، أُوصِيكُمْ وَنَفْسِي أَوَّلًا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهِيَ الْحِصْنُ الْحَصِينُ فِي مَهَبِّ الْفِتَنِ، وَالدَّرْبُ الْأَوْحَدُ لِنَيْلِ الْفَوْزِ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. وَإِنَّنَا الْيَوْمَ، وَنَحْنُ نَسْتَقْبِلُ عَامَنَا الْهِجْرِيَّ الْجَدِيدَ، نَقِفُ لِنَسْتَلْهِمَ مِنْ رَحِمِ التَّارِيخِ عِبْرَةً تَشُدُّ عَزَائِمَنَا، وَنُورًا يُبَدِّدُ ظُلُمَاتِ الطُّغْيَانِ.

خُطْبَتُنَا بِعُنْوَانِ: عَاشُورَاءُ.. بَيْنَ أَنْوَارِ الْيَقِينِ وَمَوَاقِفِ الْبَذْلِ وَالْإِصْلَاحِ

اعْلَمُوا أَيُّهَا الْكِرَامُ أَنَّنَا نَعِيشُ هَذِهِ الْأَيَّامَ فِي نَفَحَاتِ شَهْرٍ كَرِيمٍ وَمُبَارَكٍ، وَهُوَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ، الَّذِي افْتَتَحْنَا بِهِ سَنَتَنَا الْهِجْرِيَّةَ الْجَدِيدَةَ، وَجَعَلْنَاهُ مَحَطَّةً لِتَجْدِيدِ الْإِيمَانِ، وَمَوْسِمًا لِلتَّهَمُّمِ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، لِيَكُونَ خَيْرًا مِمَّا مَضَى فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَنُصْرَةِ الْحَقِّ.

وَنَحْنُ إِذْ نَسْتَحْضِرُ فِي هَذَا الشَّهْرِ ذِكْرَى عَاشُورَاءَ، لَا نَنْظُرُ إِلَيْهَا كَمُجَرَّدِ حَادِثَةٍ قَدِيمَةٍ انْتَهَتْ فِي مَاضِي التَّارِيخِ، بَلْ نَقِفُ أَمَامَ مَحَطَّةٍ رِسَالِيَّةٍ كُبْرَى، تَتَلَاقَى فِيهَا الْعِبَرُ، وَتَتَفَجَّرُ مِنْهَا مَعَانِي التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ، وَتَتَجَلَّى فِيهَا حَقِيقَةُ الصِّرَاعِ الْأَبَدِيِّ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، بَيْنَ الْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، بَيْنَ الِاسْتِكْبَارِ وَالِاسْتِضْعَافِ. فَعَاشُورَاءُ فِي دِينِنَا لَيْسَتْ لِمُجَرَّدِ الْبُكَاءِ

وَالْحُزْنِ، وَلَا هِيَ لِطُقُوسٍ جَافَّةٍ تُفْرِغُ الْمُنَاسَبَةَ مِنْ مَضْمُونِهَا التَّغْيِيرِيِّ، بَلْ هِيَ مَدْرَسَةٌ لِتَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ، وَتَجْدِيدِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ عَلَى أُسُسِ الْعَدْلِ وَالشُّورَى.

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ الْأَفَاضِلُ، إِنَّ الْفَهْمَ الْعَمِيقَ لِدَلَالَاتِ عَاشُورَاءَ يَنْقُلُنَا بَيْنَ قِصَّتَيْنِ مَفْصِلِيَّتَيْنِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ؛ الْقِصَّةُ الْأُولَى هِيَ قِصَّةُ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ الطَّاغِيَةِ فِرْعَوْنَ.

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

— الشعراء: 61 —

﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

— الشعراء: 62 —

﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ ۖ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾

— الشعراء: 63 —

نَعُودُ فِيهَا إِلَى جُذُورِ التَّارِيخِ لِنَرَى كَيْفَ وَصَلَ الِاسْتِكْبَارُ الْفِرْعَوْنِيُّ إِلَى أَبْشَعِ صُوَرِهِ، حَيْثُ كَانَ يَذْبَحُ الْأَبْنَاءَ وَيَسْتَحْيِي النِّسَاءَ، وَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى. وَفِي الْمُقَابِلِ، كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعِيشُونَ حَالَةً مِنَ الِاسْتِضْعَافِ الْمَادِيِّ التَّامِّ. وَفِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ، خَرَجَ مُوسَى بِقَوْمِهِ هَارِبًا مِنَ الظُّلْمِ، فَلَحِقَ بِهِمْ فِرْعَوْنُ بِجُيُوشِهِ الْجَرَّارَةِ وَقُوَّتِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي لَا تُقْهَرُ أَنْذَاكَ بِمَقَايِيسِ الْأَرْضِ. وَهُنَا حَاصَرَهُمُ الْبَحْرُ مِنْ أَمَامِهِمْ، وَالْعَدُوُّ مِنْ خَلْفِهِمْ، فَقَالَ أَصْحَابُ مُوسَى بِلِسَانِ الْيَأْسِ الْمَادِيِّ: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}. لَكِنَّ لِسَانَ الْإِيمَانِ الرَّاسِخِ وَالْيَقِينِ الصَّادِقِ انْطَلَقَ مِنْ سَيِّدِنَا مُوسَى لِيَهُزَّ الْكَوْنَ قَائِلًا: {كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

هَذَا هُوَ الْيَقِينُ الَّذِي يَتَجَاوَزُ الْأَسْبَابَ الْمَادِيَّةَ. فَجَاءَ الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ: {أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ ۖ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}. انْشَقَّ الْبَحْرُ لِيَكُونَ طَرِيقًا يَبَسًا لِلْمُسْتَضْعَفِينَ،

وَمَقْبَرَةً لِلظَّالِمِينَ. لِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّ الْقُوَّةَ الْمَادِيَّةَ مَهْمَا عَلَتْ لَا تَقِفُ أَمَامَ أَمْرِ اللَّهِ، وَأَنَّ طَوَاغِيتَ الْأَرْضِ مَصِيرُهُمْ إِلَى الزَّوَالِ.

> «أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ»
>
> — رواه البخاري ومسلم —

وَلِذَلِكَ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: "هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى"، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ»، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ.

أَيُّهَا الْكِرَامُ، وَلَا تَنْتَهِي عِبَرُ عَاشُورَاءَ عِنْدَ نَجَاةِ مُوسَى، بَلْ تَقُودُنَا إِلَى الْحَدَثِ الثَّانِي الَّذِي يَعْتَصِرُ لَهُ قَلْبُ كُلِّ مُسْلِمٍ يَنْبِضُ بِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَلَا وَهُوَ اسْتِشْهَادُ سِبْطِ النَّبِيِّ وَرَيْحَانَتِهِ، سَيِّدِنَا الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي كَرْبَلَاءَ.

> «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا»
>
> — رواه الترمذي وغيره —

هَذَا الِاسْتِشْهَادُ لَمْ يَكُنْ حَادِثَةً عَرَضِيَّةً أَوْ صِرَاعًا عَابِرًا عَلَى سُلْطَةٍ، بَلْ كَانَ صَرْخَةً دَوَّتْ فِي مَسَامِعِ الزَّمَانِ ضِدَّ الِانْحِرَافِ السِّيَاسِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ الَّذِي أَصَابَ جَسَدَ الْأُمَّةِ، حِينَ تَحَوَّلَتِ الْخِلَافَةُ الرَّاشِدَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى الشُّورَى وَالْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ إِلَى مُلْكٍ جَائِرٍ يُورَثُ بِالْقَهْرِ وَالسَّيْفِ.

الْحُسَيْنُ، الَّذِي قَالَ فِيهِ جَدُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا»، لَمْ يَخْرُجْ أَشِرًا وَلَا بَطِرًا، بَلْ خَرَجَ حَامِلًا هَمَّ دِينِ جَدِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَالِبًا لِلْإِصْلَاحِ، رَافِضًا أَنْ تُسَاقَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَالْعَبِيدِ. وَقَدْ سَارَ إِلَى كَرْبَلَاءَ وَهُوَ يَعْلَمُ طَبِيعَةَ الْمَعْرَكَةِ، وَخُوصِرَ مَعَ ثُلَّةٍ قَلِيلَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمُنِعَ عَنْهُمُ الْمَاءُ، وَمَعَ ذَلِكَ أَبَى أَنْ يَبِيعَ دِينَهُ أَوْ يَرْكَعَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا مُخَضَّبًا بِدِمَائِهِ الزَّكِيَّةِ. لَقَدْ قَدَّمَ نَفْسَهُ فِدَاءً لِكَيْ لَا تَمُوتَ رُوحُ الْمُقَاوَمَةِ وَرَفْضِ الظُّلْمِ فِي قُلُوبِ

الْمُسْلِمِينَ، وَلِيُرْسِيَ لِلْأُمَّةِ مَعْلَمًا خَالِدًا: أَنَّ صِيَانَةَ الْمَبَادِئِ وَإِقَامَةَ الْعَدْلِ أَغْلَى مِنَ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا.

مَعَاشِرَ الْمُؤْمِنِينَ، حِينَ نَتَأَمَّلُ هَذَيْنِ الْحَدَثَيْنِ مِنْ خِلَالِ نَظَرَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ مَقْصِدَيِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، نَجِدُ أَنَّهُمَا يُمَثِّلَانِ رُوحَ الدِّينِ وَلُبَّهُ. فَالْعَدْلُ هُوَ إِقَامَةُ الْقِسْطِ فِي الْأَرْضِ، وَرَفْعُ الظُّلْمِ عَنِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَتَحْرِيرُ الْإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ عُبُودِيَّةٍ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

> ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾
>
> — النحل: 90 —

بَيْنَمَا الْإِحْسَانُ هُوَ جَوْهَرُ الرَّابِطَةِ الرُّوحِيَّةِ مَعَ الْخَالِقِ؛ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَهُوَ طَلَبُ وَجْهِ اللَّهِ وَالْآخِرَةِ، وَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ بِالطَّاعَاتِ لِتَكُونَ صَالِحَةً لِحَمْلِ الْأَمَانَةِ.

إِنَّ هَذَا الْفَهْمَ يُعَلِّمُنَا أَنَّ نَهْضَةَ الْحُسَيْنِ كَانَتْ حَرَكَةً وَقَوْمَةً إِحْسَانِيَّةً فِي مَقَاصِدِهَا وَدَوَافِعِهَا، عَدْلِيَّةً فِي غَايَاتِهَا. فَلَا إِصْلَاحَ لِلْمُجْتَمَعِ دُونَ إِصْلَاحِ النَّفْسِ وَتَزْكِيَتِهَا، وَلَا مَعْنَى لِعِبَادَةٍ مَنْفَصِلَةٍ عَنْ قَضَايَا الْأُمَّةِ وَآلَامِ الْمُسْتَضْعَفِينَ.

وَهَذَا التَّكَامُلُ هُوَ الَّذِي نَحْتَاجُهُ الْيَوْمَ فِي دِيَارِ الْغُرْبَةِ؛ حَيْثُ نَلْتَقِي جَمِيعًا رِجَالًا وَنِسَاءً لِنُؤَكِّدَ أَنَّ عَمَلِيَّةَ الْبِنَاءِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِتَكَامُلِ الْأَدْوَارِ. فَالْمَرْأَةُ الْمُؤْمِنَةُ لَيْسَتْ عَلَى هَامِشِ هَذَا الْمَشْرُوعِ الْإِصْلَاحِيِّ، بَلْ هِيَ فِي قَلْبِهِ. وَمَا خُرُوجُ نِسَاءِ آلِ بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ مَعَ الْحُسَيْنِ، وَفِيهِمُ الْعَقِيلَةُ زَيْنَبُ بِنْتُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، إِلَّا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ فِي مَقَامَاتِ الْبَذْلِ وَالثَّبَاتِ وَمُوَاجَهَةِ الْبَاطِلِ بِلِسَانِ الصِّدْقِ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، إِنَّ رِسَالَتَنَا الَّتِي نَحْمِلُهَا مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ الْمِنْهَاجِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، تَدْعُو إِلَى وَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَعِزَّتِهَا، وَتَبْسُطُ رِدَاءَ الرَّحْمَةِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ. وَإِنَّ اسْتِقْبَالَ عَامٍ هِجْرِيٍّ جَدِيدٍ، بَعْدَ مَوَاسِمَ مِنَ الذِّكْرَى وَالِاعْتِبَارِ، يَضَعُنَا أَمَامَ سُؤَالٍ صَادِقٍ: كَيْفَ نَكُونُ أَحْسَنَ طَاعَةً لِلَّهِ، وَأَقْوَى نُصْرَةً لِلْمَظْلُومِينَ؟

إِنَّ الِاسْتِعْدَادَ الْحَقِيقِيَّ لَا يَكُونُ بِالْأَمَانِيِّ، بَلْ بِاقْتِحَامِ الْعَقَبَةِ: بِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَمُجَاهَدَتِهَا، وَالتَّحَرُّرِ مِنْ هَوَاهَا وَمِنْ خَوْفِ الْخَلْقِ، وَبِالْمُحَاسَبَةِ الصَّادِقَةِ، وَتَجْدِيدِ التَّوْبَةِ، وَتَعْلِيقِ

الْقُلُوبِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ، وَبَذْلِ الْخَيْرِ الَّذِي يَنْفَعُ النَّاسَ.

فَلْنَسْأَلْ أَنْفُسَنَا بِصِدْقٍ: هَلْ نَحْنُ عَلَى خُطَى الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الثَّبَاتِ وَالْإِخْلَاصِ؟ وَهَلْ نَحْنُ عَلَى يَقِينِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ إِنَّ أَزْمَتَنَا لَيْسَتْ قِلَّةَ عَدَدٍ، بَلْ ضَعْفَ قُلُوبٍ؛ «بَلْ أَنْتُمْ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ». فَالْحَاجَةُ الْيَوْمَ إِلَى الْإِنْسَانِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يَرْبِطُ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، وَيَجْعَلُ حَيَاتَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَنُصْرَةِ الْحَقِّ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، إِنَّ جِرَاحَ الْأُمَّةِ تَنْزِفُ الْيَوْمَ فِي فِلَسْطِينَ، فِي غَزَّةَ الصَّابِرَةِ، وَفِي لُبْنَانَ الْجَرِيحِ، حَيْثُ يَقِفُ الْمُسْتَضْعَفُونَ بِإِيمَانٍ رَاسِخٍ أَمَامَ الظُّلْمِ، وَيُعْلِنُونَ بِثَبَاتٍ: لَا نَرْكَعُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى. وَإِنَّ دِمَاءَ الشُّهَدَاءِ وَآلَامَ الْمُصَابِينَ امْتِدَادٌ لِمَبْدَإٍ خَالِدٍ: رَفْضُ الْبَاطِلِ وَالثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ.

وَإِنَّ نُصْرَتَهُمْ لَيْسَتْ خِيَارًا، بَلْ وَاجِبٌ: بِالدُّعَاءِ الصَّادِقِ، وَبَذْلِ الْمَالِ، وَرَفْعِ الصَّوْتِ بِالْحَقِّ، وَاتِّخَاذِ مَوَاقِفَ عَمَلِيَّةٍ تُجَسِّدُ مَسْؤُولِيَّتَنَا حَيْثُ كُنَّا.

وَإِنَّنَا نُعْلِنُهَا وَاضِحَةً: إِنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَإِنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، وَلَكِنَّ النَّصْرَ لَا يَكُونُ لِلْقَاعِدِينَ، بَلْ لِمَنْ جَاهَدُوا أَنْفُسَهُمْ، وَنَصَرُوا الْحَقَّ، وَثَبَتُوا عَلَى الطَّرِيقِ.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ.

صلى الله عليه وسلم

المركز الإسلامي · centroislamico.in

عاشوراء · اليقين · موسى · فرعون · الحسين · كربلاء · الإصلاح

العدل · غزة · لبنان · المحرم · الهجرة